الطريق إلى بناء الفرد الصوفى

من خلال فكر الإمام الشعرانى

د/ حذيفة محمد سيد أحمد المسير
مدرس العقيدة والفلسفة
كلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن المجتمع المسلم مجتمع متكاتف، يتعاون أفراده على الخير، ويتواصون بالاستقامة، ويهدفون إلى الرضا من الله، والفوز فى الدنيا والآخرة.

وإن حاجة المجتمع إلى الإصلاح فى كل أدواره ضرورة لا شك فيها، ويكفى فى بيان هذه الحاجة قول النبى ﷺ: {**الدين النصيحة**}، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: {**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**}[1].

والتصوف – كمنهج وتطبيق – يمكن أن يكون له الدور المؤثر فى إصلاح المجتمع وهدايته، ويكفى أن ننظر فى تاريخ المسلمين لنرى كيف كان التصوف وسيلة دعوة، وسبيل هدى، وطريق خير وفلاح.

وإذا كان من الممكن أن يكون للتصوف هذا الدور فإننا لا بد أن لا نغفل أنه مرت بالتصوف أوقات وأدوار أثرت فيه، وحجبت وجهه، وأثقلت كاهله بما ليس منه، ومن هنا فإن أول طريق الإصلاح الصوفى أن ننظر فى بناء الفرد الصوفى، لنصنع منه فردًا ربانيًا، ينشد الخير، ويسعى إليه.

وليس أقدر على تحديد ملامح هذا البناء من علماء الصوفية أنفسهم، فهم أدرى به من غيرهم، وأبعد عن الريبة والتهمة، وأقرب للوصول لقلوب الصوفية وعقولهم.

وقد حاولت هنا أن أقدم نظرة الإمام الشعرانى، ورؤيته، متلمسًا ذلك من خلال فكره وكتبه.

وراعيت – قدر الإمكان – ترتيب النقاط، وتواصل الفقرات، وحسن الاستنباط والعرض.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: 4].

القاهرة **د/ حذيفة محمد المسير**

ذو القعدة 1431هـ

أكتوبر 2010م

---

(1) رواه مسلم.

المطلب الأول

التعريف بالإمام الشعرانى

هو عبد الوهاب بن أحمد بن على بن محمد الشعرانى، يتصل نسبه بمحمد بن على بن أبى طالب، المعروف بمحمد ابن الحنفية [1].

ولد فى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة من الهجرة (898هـ)، وكانت ولادته – غالبًا – فى بلدة أمه، وهى قرية (قلقشندة)، ثم انتقل به أبوه بعد أربعين يومًا إلى قريته وهى (ساقية أبى شعرة)، إحدى قرى المنوفية [2].

توفى فى زاويته الموجودة بالمسجد الذى بناه له القاضى محى الدين عبد القادر الأزريكى [3]، وكانت وفاته فى الثانى عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة من الهجرة (973هـ)، وعمره قد قارب خمسًا وسبعين سنة [4].

نشأ فى التصوف على الطريقة الشاذلية [5]، وفى أسرة لها مع التصوف تاريخ حافل، وكان أول اختلاطه بالتصوف من ناحية نسبه مع جده السابع موسى المكنى بأبى العمران، وذلك حين التقى بالشيخ أبى مدين المغربى [6]، واستمر ذلك فى نسبه حتى كان الشيخ إبراهيم المتبولى ذا صلة وثيقة بجد الشعرانى الأدنى الشيخ على الشعرانى، وكان إذا قدم ناحيته يقول لأصحابه: المبيت عند الشيخ على، وذلك لشدة تورعه [7].

---

(1) المنن الكبرى أو لطائف المنن والأخلاق فى وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق، عبد الوهاب الشعرانى، ص55، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1999م.

(2) الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، عبد الرؤف المناوى، مجلد 2، ج4، ص75، الطبعة الأولى، 1357هـ/1938م، وراجع شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلى، ج8، ص372.

(3) البحر المورود فى المواثيق والعهود، عبد الوهاب الشعرانى، ص8، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2003م.

(4) المصدر نفسه، ص9.

(5) الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية، عبد الوهاب الشعرانى، ج1، ص200، مطبعة عيسى البابى الحلبى على هامش كتاب الطبقات الكبرى.

(6) المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص55، سبق.

(7) الطبقات الكبرى أو لواقح الأنوار فى طبقات الأخبار، عبد الوهاب الشعرانى، ج2، ص86، مطبعة عيسى البابى الحلبى، الطبعة الأولى، 1373هـ/1954م.

التقى الشعرانى بكثيرين من كبار صوفية عصره، وقرأ للسابقين عليه، وتأثر بكبار القوم، وكان أكبر من تـأثر بهم من السابقين هو الشيخ محى الدين بن عربى، أما من معاصريـه فكـان الشـيخ عـلى الخـواص هـو صـاحب الأثـر الواضح فى شخصيته.

ترك من المؤلفات ما يربو على مائة وستين مؤلفًـا، بعضـها فى مجلـدات، والآخـر فى ورقـات، وكـان الطـابع الصوفى جليًا فى جميعها مهما كان الموضوع الذى يكتب حوله[1].

المطلب الثانى

تقديره للتصوف وتعريفه له

كان الإمام الشعرانى شديد الاعتزاز بالتصوف، كبير الغيرة عليه من الناقمين عليه والدخلاء فيه، وقـد أكثـر من ذكر أقوال العلماء فى صحة طريق القوم، والوجوه التى تفرد بها القوم فى العلم والخلق والوصول.

ويكفى هنا فى هذا المقام الموجز أن أشير إلى أنه كرر فى عدة مواضع ذكر كلمة الإمـام العـز بـن عبـد السـلام حول التصوف، وهى قوله: «مما يدلك على صحة مذهب الفقراء كثرة كراماتهم، وما رأينا أحدًا من الفقهاء وقـع عـلى يديه كرامة إلا إن سلك منهاجهم، ومن لم يؤمن بكراماتهم حرم بركتهم، وقد شاهدنا كل من أنكـر عـلى الفقـراء مـن غير دخول فى طريقهم يصير على وجهه كآبة وعلامة على الطرد والمقت لا تخفى على ذى بصيرة»[2].

وهذا القول كان مذهب الشعرانى، حيث كان يـرى أن الكرامـات لا تقـع إلا للصـوفية [3]، وأنهـا مـن بـاب البشرى المعجلة لصاحبها [4].

أما تعريفه للتصوف، فإنه استعرض أقوال كثيرين، لكنه اختار تعريفًـا معينًـا لـه، وهـو أنـه: «معرفـة طريـق الوصول إلى العمل بالإخلاص لا غير»[5]، وحقيقة الصوفى عنده هو أنه: «عالم عمل بعلمـه عـلى وجـه الإخـلاص لا غير»[6].

---

(1) انظر: الرؤية الصوفية لقضايا العقيدة فى فكر الإمام الشعرانى عرض ونقد، للمؤلف، مخطوط بكلية أصول الدين بالقاهرة.

(2) الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية، عبد الوهاب الشعرانى، ج1، ص49، سبق.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص490-491، سبق.

(5) الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، عبد الوهاب الشعرانى، ص135، دار جوامع الكلم، الطبعة الثالثة، 1987م.

(6) الأخلاق المتبولية، عبد الوهاب الشعرانى، ج1، ص251، تحقيق د/ منيع عبد الحليم محمود، مكتبة الإيمان،

المطلب الثالث

محاولاته للإصلاح

احتك الشعرانى بكثيرين من صوفية عصره، سواء من كانوا على طريقته أو غيرها، وسواء كانوا داخل مصر أو خارجها، وقد لاحظ عند بعضهم خللاً فى طريقهم الصوفى، سواء كان فى فهمهم له، أو تطبيقهم إياه.

ولأنه كان غيورًا على التصوف أن ينسب له ما ليس منه، وأن يتخذ من سوء الفهم أو التطبيق سهامًا للنيل منه، فقد كرر المحاولة تلو المحاولة لنصحهم وإرشادهم، وبيان وجه الصواب لهم.

وقد كان هذا النصح متعددًا سواء بالمشافهة معهم، أو بالكتابة، وسواء كانت الكتابة رسالة أو كتابًا، خاصة بهم أو عامة.

وقد تعددت صور كتابته لبيان هذا الصواب، فمرة يكتب مبينًا أحوال الصوفية السابقين وأخلاقهم، ليتعلم المريدون والشيوخ من طريقتهم، ومن ذلك كتابه (لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار) وهو المعروف بالطبقات الكبرى، وكذا كتابه (الأخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية)، وكتابه (درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص).

ومرة ثانية يكتب عن الشيخ والمريد وأخلاقهما، وما يجب على كل منهما، وذلك مثل كتابه (الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية)، وكتابه (الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية)، وكتابه (الأنوار فى صحبة الأخيار).

وتارة ثالثة يكتب عن أخلاقه، وعن العهود التى أخذت عليه ليصح له التصوف، وذلك مثل كتابه (لطائف المنن والأخلاق فى وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق)، وكتابه (البحر المورود فى المواثيق والعهود).

ومرة رابعة يكتب مصححًا لأفكار شائعة عند بعض القوم، ليعرف الناس الصواب من الخطأ، ومن ذلك كتابه (ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى)، وكتابه (التتبع والفحص فى حكم الإلهام إذا خالف النص)، وكذا (حد الحسام فى عنق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام).

ويمكن القول بأن الشعرانى كان يحمل على عاتقه مهمة الإصلاح تلك، لأنه يرى أن ذلك هو الطريق الوحيد لضمان استقرار المجتمع وسلامته.

ولم يكن طريقه مفروشًا بالورود، فقد ذكر أن دعوته للإصلاح لم تكن يسيرة، ولم يكن طريقها سهلاً، بل لقد تعرض من بعض هؤلاء للكيد والإيذاء، وبعضهم سعى للنيل منه عند الخاصة والعامة، والعلماء والحكام.

2003م.

المطلب الرابع

ملامح البناء الصوفى فى فكره

قدم الإمام الشعرانى منهجًا متكاملاً لبناء الفرد الصوفى، ولإصلاح طريق القوم المؤدى إلى مرضاة الله تعالى، وقد اهتم فى هذا المنهج بجانبى التخلية والتحلية، مبتغيًا فى ذلك رسم الطريق لمحاولة الوصول إلى السير على منهج كبار القوم والسابقين منهم.

ويمكن هنا أن أقدم لبعض ملامح هذا المنهج، مستنبطًا ذلك من أقواله ومؤلفاته، أملاً فى الوصول إلى الصلاح المأمول، والإصلاح المنشود.

وتتركز هذه الملامح فيما يلى:

1- **الالتزام بالشرع.**
2- **الحرص على العلم الشرعى.**
3- **البعد عما لا ينفع من العلم.**
4- **تقدير المخالفين وعدم النيل منهم.**
5- **التحلى بفضائل الأخلاق.**
6- **الترفع عن الدنيا.**
7- **عدم استعجال الوصول.**
8- **التيقظ والانتباه فى جميع الأحوال.**

وفيما يلى تفصيل ميسر لكل منها:

أولاً: الالتزام بالشرع:

إذا كان الشعرانى يرى أن التصوف ما هو إلا تطبيق مخلص لصحيح الشرع فإنه يكون لزامًا على المتصوف أن يأخذ نفسه بالشرع فى كل ما يأتى ويذر.

فالالتزام بالشرع هو الأساس الأول لنقاء التصوف وصحته، وقد ذكر أقوالاً عدة لكبار الصوفية تأكيدًا على ذلك، ومن هذا مثلاً قول بشر الحافى لما سئل عن التصوف: ما هو؟ فأجاب: «هو اسم لثلاثة معان: وهو أن يغطى نور معرفة العارف نور ورعه، وأن لا يتكلم فى علم باطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، وألا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله عز وجل»[1]، وهذا سهل التسترى يقول: «أصولنا سبعة: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسيدنا رسول الله ﷺ، ...»[2].

---

(1) **الطبقات الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ج1، ص74، سبق.**

(2) **المنح السنية على الوصية المتبولية، عبد الوهاب الشعرانى، ص16، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 1424هـ/2004م.**

والشعرانى نفسه يقول – دفاعًا عن التصوف -: «فكذب والله من يقول: إن طريق القوم بدعة، وإذا كان من يهاب مخالفة الشريعة، ويتوقف عن العمل حتى يعلم موافقته للشرع مبتدعًا، فما بقى على وجه الأرض سنى»[1].

وفى هذه العجالة السريعة أحب أن أقدم عدة نقاط تؤكد على التزام الشعرانى بهذا الأصل، ودعوته المريدين والشيوخ ليكونوا على ذلك:

أ- إنه يؤكد على أن أهل الكشف وإن كانوا على علم عال رفيع إلا أنهم ليسوا بأنبياء ولا معصومين، ومن هنا فليس كلامهم مسلمًا إلا إن وافق قواعد الشرع وأدلته، وإلا فلا خير فيه، وقد قال الشعرانى فى مقدمة كتابه (اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر): «لكنى رأيت فى الفتوحات مواضع لم أفهمها، فذكرتها لينظر فيها علماء الإسلام، ويحقوا الحق، ويبطلوا الباطل إن وجدوه، فلا تظن يا أخى أنى ذكرتها لكونى أعتقد صحتها وأرضاها فى عقيدتى، كما يقع فيه المتهورون فى أعراض الناس، فيقولون: لولا أنه ارتضى ذلك الكلام واعتقد صحته ما ذكره فى مؤلفه، معاذ الله أن أخالف جمهور المتكلمين وأعتقد صحة كلام من خالفهم من بعض أهل الكشف الغير المعصوم»[2].

ب- إنه ينتقد بعض ما يصدر من بعض المتصوفة بناء على أنها أمور لا يشهد لها الشرع كما يراه، ومن ذلك قوله فى منع الخلوة: «أخذ علينا العهود أن لا نعانى الخلوة المشهورة بين الصوفية، لأن أصلها إنما هو لعدم شريعة بين أظهرنا نمشى عليها، وقد وضحت طريق الشريعة حتى عرفها الخاص والعام، ... وليقدر المختلى نفسه لو كان فى زمن رسول الله ﷺ ماذا كان يفعل بعد سماعه أحاديث رسول الله ﷺ فليفعل ذلك الآن»[3].

ج- إنه يقدم من نفسه القدوة لغيره فى ذلك، فمع علمه وسعة معرفته فإنه يحرص فى كثير من كتبه على أن يعرضها على كبار علماء عصره من أصحاب المذاهب الأربعة لينظروا فيها، ثم إن وجدوها حقًا كتبوا تقاريظهم عليها، وذلك مثل ما يوجد فى كتابه (اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر)، وكتابه (درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص)، والمطالع فيها يجد دهشة العلماء من هذه العلوم، وحسن تقديرهم لها.

د- إنه ينبه الصوفية ومن يدرسون التصوف ويحكمون عليه إلى أمر ذى بال لا بد من التنبه إليه قبل أن يبدأ المريد الطريق أو يأخذ العالم فى الحكم والتوجيه، وهو أنه لا بد من التفرقة بين صنفين من أصحاب الكرامات بين الصوفية:

---

(1) تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر، عبد الوهاب الشعرانى، ص21، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1998م.

(2) ص3-4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1998م.

(3) البحر المورود فى المواثيق والعهود، عبد الوهاب الشعرانى، ص235، سبق.

الأول: هم هؤلاء العالمون بالشرع، القائمون به، المحافظون عليه، أصحاب المدارس والطرق، وهـؤلاء هـم الذين يقتدى بهم، ويسير المريد على هديهم، ويأخذ الناس علم التصوف عنهم.

الثانى: هم أرباب الأحوال والمجاذيب، وهم قـوم غـاب عـنهم العقـل فى أكثـر أوقـاتهم، وصـدرت مـنهم خوارق وكرامات وإجابات للدعوات بالرغم من وقوعهم فى بعض الأعمال غير الصحيحة، لكن هؤلاء سقط عـنهم التكليف لذهاب العقل عنهم، ولا يقتدى بهم، ولا يسير المريد على هـديهم، والواجـب عليـه الاعتقـاد فى مكـانتهم، وإجابة دعواتهم، لكن لا يطلب منهم الدعاء لئلا يدعون على الشخص بدلاً مـن الـدعاء لـه، فهـؤلاء حالـة خاصـة، يعتقد فيهم لكن لا يستفاد منهم، ولا خير فى صحبتهم، ولا يحكم عليهم أو بهم للتصوف أو عليه [1].

هـ- إنه يقدم الأعذار الشرعية لما يتداول بين الناس مما ينسب من أقوال أو أفعال لكبار الصـوفية وعلمائهـم، فيذكر أن ذلك إما أنه مدسوس عليهم، أو أن له تأويلاً سائغًا يرتضيه الشرع، أو أن ذلك كان قبـل أوان كمالهـم، أو فى حال سكرهم وعدم صحوهم.

فمن ذلك مثلاً قوله عن الشبلى حين قال: ما فى الجبة إلا الله، : «ومعناه: قولهم: ما فى الوجود إلا الله، كـما لـو قلت: ما فى المرآة إلا من تجلى لها، لصدقت مع علمك أنه ما فى المرآة شىء أصلاً، ... وهذا كله من باب: ألا كـل شـىء ما خلا الله باطل، لأن الباطل هو الذى لا وجود له، فافهم»[2].

وينقل عن ابن عربى قوله: «اعلم أن العاشق إذا قال: أنا من أهوى ومن أهوى أنـا، فـإن ذلـك كـلام بلسـان العشاق والمحبة، لا بلسان العلم والتحقيق، ولذلك يرجع أحدهم عن هذا القول إذا صحا من سكره»[3].

وللشعرانى كلام كثير فى هذا الباب، ليرجع إليه من أراد.

ثانيًا: الحرص على العلم الشرعى:

سبق القول بأن الالتزام بالشرع هو أساس طريق الحقيقة كما يراه الشـعرانى، وهنـا يلفـت هـذا الإمـام نظـر الكافة إلى أن هذا الالتزام لكى يكون صادقًا وكـاملاً ومسـتمرًا فـلا بـد مـن الحـرص عـلى تحصـيل العلـم الشرـعى الصحيح.

---

(1) الرؤية الصوفية لقضايا العقيدة فى فكر الإمام الشعرانى عرض ونقد، المؤلف، ص99-100، سبق.

(2) الفتح فى تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح، عبد الوهاب الشعرانى، ص61، تحقيق قاسم محمد عباس، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2003م.

(3) اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر، عبد الوهاب الشعرانى، ص86، سبق.

هذا العلم الشرعى شرط فى الشيخ، وضرورى للمريد، والشيخ يجب عليه أن يعطى المريد ما يحتاجه من العلوم، أو يأذن له فى الخروج لتحصيلها، وكان يقول عن نفسه: «وعندى – بحمد الله تعالى – من العلم ما يكفى جميع المجاورين فلا يحتاجون إلى الخروج من الزاوية ليقبلوا على غيرى، فإن الله تعالى قد ألهمنى الفهم فى كل علم يتداوله الناس اليوم، حتى إنى أقرأ فى الأربعة مذاهب لمن طلب، وربما أوجه أقوال كل مذهب أكثر من أهله، مع أنى متقيد بمذهب الإمام الشافعى -رضى الله تعالى عنه- وإنما كنت أوجه مذاهب غيره لاطلاعى على منازع أقوال الأئمة، وإلى ما استندت إليه من الآيات والأخبار والآثار»[1].

وهذا القول من الشعرانى يمكن ملاحظته، ورؤية مدى علمه، سواء اتفقنا معه فى بعض استنتاجاته أم لا [2].

وطريق تحصيل العلم الشرعى بالنسبة للصوفى ذو شعبتين:

الأولى: التلقى عن العلماء، ومطالعة الكتب، وجمع المسائل، بأكثر مما يفعله الطلاب الآخرون.

الثانية: كثرة الصدق فى العبادة، وشدة التقرب إلى الله تعالى، ليفيض عليه من العلم والفهم ما لا يتوقعه، يقول: «ومما أنعم الله تبارك وتعالى به علىّ بعد ذلك دخولى للاطلاع على معانى الكتاب والسنة من بابها، وذلك بتكثير النوافل، فإن من واظب عليها أحبه الله تعالى، وإذا أحبه قربه من حضرته، وإذا قربه من حضرته أطلعه على أسرار شريعته»[3].

إن التلازم بين طلب العلم وصحة الطريق واضح لكل ذى عينين، إنه يقول: «فعلم من جميع ما قررناه أن التبحر فى الشريعة هو أساس طريق الحقيقة، وأنهما متلازمان ملازمة الظل للشاخص»[4].

وإذا كان العلم هو الذى يعطى المريد وضوح الطريق، ودقة الهدف، وسلامة المنهج، فإن طريق القوم بعد ذلك هو أحد روافد هذا العلم، وأحد مصادره، ولقد قدم الشعرانى فى بعض مؤلفاته نظرته للتقارب بين المذاهب الكلامية والفقهية، أراد فيها أن يثبت وجهة النظر القائلة بأن المجتهد مصيب لا محالة ما لم يخالف دليلاً قطعيًا، فهو يقدم ميزانًا فى باب العقائد ذكره فى كتابه (الميزان الذرية المبينة لعقائد الفرق العلية)، ويقدم ميزانًا آخر فى باب الفقه ذكره عدة مرات، أوسعها فى كتابه (الميزان الكبرى الشعرانية المدخلة لأقوال الأئمة المجتهدين ومقلديهم فى الشريعة المحمدية)، ولا يفوته فى كلا المحاولتين أن يذكر أنهما من تعليم إلهامى، وفيض صوفى، وعلم لدنى.

---

(1) المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص631، سبق.
(2) انظر الرؤية الصوفية لقضايا العقيدة ...، المؤلف، سبق.
(3) المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص86، سبق.
(4) الأخلاق المتبولية، عبد الوهاب الشعرانى، ج1، ص235، سبق.

ثالثًا: البعد عما لا ينفع من العلم:

إذا كان العلم الشرعى ضروريًا للمريد والشيخ فإنه لا بد أن يتعلم الصوفى أن يصل إلى طريقة من أيسر الطرق وأسهلها، ولا بد أن لا يشغل ذهنه بما لا يصل إلى إدراكه، وبما هو فوق طاقته.

فليس كل علم ولو كان شرعيًا يكون ملائمًا لكل إنسان، وأى كتاب أو مسلك قد يؤدى إلى إثارة شبهة فى الذهن، أو يعطل صاحبه عن الترقى، فالخير للصوفى ألا يلجأ إليه، وليبحث عن غيره مما يكون يسيرًا فى إدراكه، سهلاً فى الإحاطة به.

ومن هنا فإن الشعرانى – مع شدة حبه وتقديره وتأثره بالشيخ محى الدين بن عربى – يوصى المريد بقوله: «وليحذر أيضًا من مطالعة كتب الشيخ محى الدين بن العربى ... لعلو مراقيها»[1]، ويقول: «وكان محى الدين بن عربى يقول: نحن قوم يحرم النظر فى كتبنا لمن لم يكن فى مقامنا»[2].

هذا التحريم مرده أن هذه الكتب لا تستطيع غالبية الأفهام الوصول إليها، وإدراك وجه الصواب فيها، فيقول: إن بعض الناس قد «يطالع فى كتب الشيخ محى الدين، ... ويصير يفهم منها خلاف مراد أصحابها من الكفريات، ثم ... يضيف ذلك إلى الشيخ محى الدين وغيره، ... فيضيفون إليه الفواحش وسوء العقيدة، وهو – رضى الله عنه – برىء من نحو ذلك كله، كما أوضحنا ذلك فى كتابنا المسمى (اليواقيت والجواهر)، على أن هذا الذى يدعى التصوف، ويطالع كتب الأولياء، ... ويفهم غير مرادهم ... إذا قيل له: ألق لنا درسًا فى الفقه مثلاً ... لا يستطيع ذلك، فكيف يفهم أسرار الشريعة التى ماتت فحول العلماء بحسرة (عدم)[3] الاطلاع عليها، وهو لم يعرف أحكامها الظاهرة»[4].

والخطر أيضًا ليس فى أن تنسب لهؤلاء ما ليس بصحيح، بل فى الاعتقاد بهذه الأمور وهو يظن أنه على قدم السابقين عليه، يقول: «أخذ علينا العهود أن لا نمكن أصحابنا قط من مطالعة كتب الشيخ محى الدين بن العربى لأن ذلك يوقفهم عما هم مخلوقون له من الآداب الشرعية، ولا يقدرون على التصريح بها، فيعتقدون ذلك، فيخسرون فى الدارين، ... فعلم أن الطعن إنما هو على هؤلاء العوام الذين يطالعون كلام الأشياخ ويفهمونه على غير وجهه لا على

---

(1) المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص408، سبق.
(2) الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية، عبد الوهاب الشعرانى، ج2، ص69، سبق.
(3) ليست فى الأصل، وأظنها مقصودة.
(4) المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص640–641، سبق.

الأشياخ، ومن ادعى من المتصوفة أنه يفهم كلام الأكابر المرموزة قرأنا عليه كتاب (الإسرا) للشيخ محى الدين، أو كتاب (المشاهد)، فإن عرف يمشى فيه خطوة سلمنا له دعواه، والله واسع عليم»[1].

ولأجل هذه المعانى فإن الشعرانى يذكر أنه أشاع بين الناس أنه غسل بعض كتبه لما لم يجد لها ذائقًا بين القوم، وكان ذلك منه حفظًا لعقائدهم أن تتشوش، أو نفوسهم أن تضطرب، مع أنه كله حقائق – كما يقول –[2].

ولو حدث أن بعض الأفكار أو المواضع سبقت لأفهام هؤلاء فالواجب على العلماء انتحال الأجوبة عنها حتى لا يفهموا غير الصواب منها، ولما ألف الشعرانى رسالته المسماة (رسالة الفتح فى تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح)، قال فى مقدمتها: «فهذه رسالة وضعتها بمشيئة الله تعالى فى تأويل بعض كلمات صدرت من بعض الكمل من العارفين – رضى الله عنهم أجمعين – وأشكل معناها على بعض الفقراء القاصرين، فأولتها لهم حتى تقبلها عقولهم، ولا تنفر من طريق العارفين فيخسروا مع الخاسرين، ولم أذكر فيها كل ما بلغنى عنهم من الشطح لدقة تأويله على الأفهام السليمة فضلاً عن غيرها، لا سيما والكتاب يقع فى يد أهله وغير أهله»[3].

رابعًا: تقدير المخالفين وعدم النيل منهم:

إن الواجب على الصوفى أن يعرف أنه لم يحط علمًا بكل شىء، وأن ترجيحه لرأى، أو سلوكه على يد شيخ، لا يعنى أن ما عداه خطأ لا يصح، وإن المحافظة على أقدار العلماء، وحسن الكلام عنهم، وحسن الظن بهم، هو من كمال الإيمان، وصحة الطريق، ونقاء القلب.

إن الطريق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلق، ولذلك يقول الشعرانى: «أخذ علينا العهود أن لا نمكن أصحابنا من فتح باب التعصب لشيخ دون شيخ، سواء كان ذلك الشيخ حيًا أو ميتًا، فإن فى ذلك من سوء الأدب ما لا يخفى، وفيه دليل على أنهم لم ينتفعوا بصحبتنا شيئًا، فلو انتفعوا لخرس لسانهم عن كل فضول، لا سيما إن كنا نهيناهم عن ذلك مرارًا»[4].

وإذا كان الواجب على المسلم عمومًا والصوفى خصوصًا أن يحسن الظن بجميع المسلمين، فما بالنا بكبار العلماء والأولياء، وبالمشايخ والمريدين، فيقول: «واعلم يا أخى أن الحق تعالى لا يسأل عبدًا فى الآخرة قط: لم حسنت

---

(1) البحر المورود فى المواثيق والعهود، عبد الوهاب الشعرانى، ص170–172، سبق.
(2) الأخلاق المتبولية، عبد الوهاب الشعرانى، ج1، ص143، سبق.
(3) ص43، سبق.
(4) البحر المورود فى المواثيق والعهود، عبد الوهاب الشعرانى، ص70، سبق.

ظنك بعبادى؟، وإنما يسأله عن سوء ظنه بهم، ولا تصل يا أخى إلى مقام حسن الظن بجمع الناس إلا إن طهر باطنك من جميع النقائص، وما دامت هناك نقيصة فسوء الظن من لازمك، لأنك لا تقيس الناس كلهم إلا على نفسك»[1].

إن الاحترام مع جميع المشايخ والعلماء أمر محتم، ويصل الأمر لأن يقول الشعرانى: «أخذ علينا العهود أن لا نتصدى قط لتلقين الذكر وأخذ العهد على المريدين وفى البلد من هو أقدم منا هجرة وأعرف بطريق الله عز وجل، فإن تصدينا لذلك فقد خنا الله ورسوله ﷺ، فإذا جاءنا شخص يريد الأخذ عنا عرفناه مقام ذلك الشيخ، وأرسلناه له، ... فإن وقع أننا علمنا أحدًا أدبًا نوينا النيابة عن ذلك الشيخ الذى هو أكبر منا فى البلد»[2].

لقد عانى الشعرانى فى عصره من مظاهر الصراع بين أصحاب الزوايا ومريديهم، حيث كان يحاول بعضهم الانتقاص من غيرهم تنفيرًا للمريدين منهم، وحتى لا يبقى لهم وجهة غيرهم.

ومع أن الشعرانى كان ينتقد فى كتبه بعض هذه المظاهر الخاطئة، ويذكر مواقف عاشها مع هؤلاء تدل على مدى بعدهم عن الطريق الصحيح، إلا أن الملاحظ أنه كان محتاطًا فى كلامه، فلم يذكر اسم واحد من هؤلاء أبدًا، ولا أشار إليه إشارة يعرف بها، بل كان دائمًا ما يقول: وقد حدث مرة أن أحدهم قال: كذا، أو أن بعضهم قال: كذا وكذا، أو حدث منه كذا، بل مع أنه يذكر أن بعضهم سعى فى إيذائه والنيل منه إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يذكر ما يعرف من مناقبهم فى كتبه التى ترجم فيها لبعض المعاصرين له.

لقد عانى التصوف فى أكثر أوقاته من حكم النظرة الواحدة التى لا تعترف بغيرها، ولا ترى صوابًا إلا لها.

ولا بد أن نعلم أنه ما لم يكن الأمر ذا بينة واضحة، ودليل لا لبس فيه، فعلينا أن نجعل اجتهادات علمائنا سعة، وسبيل وحدة، وليست شقاقًا وتنازعًا وسبيل فرقة، فإن الجميع يسعون لهدف واحد، ولغاية متفقة.

وإن التهوين من شأن المخالفين لنا، والقدح فى علمهم ونياتهم، ومحاولة الانتقاص من أقدارهم، من شأنه أن يضعف أثر الجميع فى نفوس المجتمع، وقدرتهم جميعًا على إصلاح الناس، وقيادتهم للهدى والرشاد.

خامسًا: التحلى بفضائل الأخلاق:

إن العلم مع كونه ضروريًا لسلامة الطريق بالنسبة الصوفى، فإنه وحده لا يكفى لبناء متصوف صحيح التصوف، بل لا بد من الأخذ بأسمى الأخلاق، والترقى فى درجاتها، ليستطيع المحافظة على صلته بالله، وعلاقته بالناس.

---

(1) المصدر نفسه، ص179.
(2) المصدر نفسه، ص110.

إن هدف الصوفى أن تسكن نفسه من العداوات، وأن يطمئن قلبه فى الحياة باستناده إلى الخالق، وأن يجذب غيره ليذوقوا مثل ما ذاق، ليعرفوا كما عرف، ولا يمكن للصوفى أن يصل إلى ذلك بعيدًا عن حسن الخلق، وله فى ذلك أسوة حسنة فى رسول الله ﷺ، حيث كان أحسن الناس خلقًا، وكان من أهداف رسالته أن يتمم مكارم الأخلاق.

ولقد أخذ الجانب الأخلاقى عند الشعرانى ومؤلفاته مكانًا بارزًا، تستطيع العين ملاحظته من أدنى تأمل.

ومع أنه كان يذكر فى بعض الأحيان بعض ما يجب من أخلاق العارفين، والمشايخ، إلا أن أكبر همه كان متوجهًا إلى تأكيد أخلاق المريدين، وهو أول درجات المتصوف، لأن الشعرانى لاحظ فى كثير من المتصوفة البعد عنها، والتخلى عن فضائلها، فتعددت الكتب والرسائل تؤكد على أهميتها، وضرورتها، ووجوب المحافظة عليها.

وكانت هذه الكتب والرسائل تختلف فى الصياغة، والاستدلال، والترتيب، لكنها كانت تتفق على هذه الأخلاق، وذكر تمسك الصوفية بها، وتعددت الأساليب فى إبرازها، فمرة يذكرها مجردة على أنها من أخلاق القوم، مثل كتاب (الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية)، ومرة يذكر أنها من عهود القوم ومواثيقهم، ومما تواصى القوم به، مثل كتاب (البحر المورود فى المواثيق والعهود)، وتارة ثالثة يذكر أنها من أخلاق كبار القوم وطريقهم، مثل كتاب (الأخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية)، ورابعة يذكرها على أنها مما تخلق هو به، وسار عليه، مثل كتاب (لطائف المنن والأخلاق فى وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق).

إن أهمية الأخلاق للصوفى تظهر فى جميع أوقات حياته، وتتجلى خصوصًا حين تتوجه سهام الطاعنين له، والناقمين عليه، فيقابل إساءتهم إحسانًا، وتطاولهم إغضاء، ونفرتهم محبة وسلامًا، فإنه لا يصح له أن يفر بنفسه، ولا أن يكون باب فرقة ونفرة فى مجتمعه، ولقد أخبر الشعرانى أنه وهو طائف بالكعبة حين حج سنة سبع وأربعين وتسعمائة من الهجرة (947هـ) نظر فى قلبه «فلم أعرف دعاء واحدًا مما ورد أن أقوله فى الطواف، فسمعت قائلاً يقول لى من داخل الحجر: قل: اللهم أفرغ على من الأخلاق المحمدية ما أتحمل به الأذى من جميع العباد»[1].

إن الصوفى لا يتعالى على أفراد مجتمعه، ولا يفر منهم، بل يحنو عليهم، ويتواضع لهم، ويلين معهم.

إن أهمية الأخلاق للصوفى أنها تكون معه بدءً وختامًا، دعاءً وسلوكًا، وبمقدار ما يبتعد الصوفى عنها بمقدار ما يبتعد عن صحيح التصوف، وقرب الوصول إلى مرضاة رب العالمين.

سادسًا: الترفع عن الدنيا:

---

(1) **الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، عبد الوهاب الشعرانى، ص250، سبق.**

إن الدنيا فى حد ذاتها ليست هدفًا يحرص الإنسان عليه، ويضيع عمره لأجله، والصوفى زاهد ورع، لا تشغله الدنيا، ولا تؤرق مضجعه، وحين يترفع عن الدنيا فإنه ليس ترفع الفقراء العاجزين، ولكنه ترفع الأغنياء القادرين.

وحين يتخذ المتصوفة تصوفهم سببًا للتنافس على الدنيا، وطريقًا للحرص عليها، فإنهم يضرون التصوف نفسه، ويقلبونه من الهدوء والسلام إلى التناحر والتشاجر.

لقد بين الشعرانى أن الصوفى ما دام لم يجعل الدنيا هدفه ومبتغاه فلا حرج بعد ذلك إن أتته الدنيا أو ذهبت، ولو جاءته الدنيا فإنه سيكون عندئذ لمجتمعه خيرًا وفرجًا.

لقد تقلبت الأحوال مع الشعرانى فقرًا وسعة، لكنه أراد أن يبين أنه لا أحد من الحالين كان أحب إلى نفسه، لقد كان فى أول أمره ينسخ الكتب لضيق ذات يده عن شرائها [1]، وكان يقول: «وقد مكثت أنا نحو سنة وعمامتى شراميط من الكتان، وقصاصة الجلود، حتى وجدت الحلال، وبالغت فى التدقيق فى الورع، ... حتى كنت لا آكل من فراخ الحمام لأكلها من زرع الناس مما قد لا تسمح به نفوسهم»[2]، ثم بعد فترة من الزمن كان يقول: «وكان الناس يأتون بالثياب الفاخرة، والأطعمة اللذيذة، فأدرها خوفًا من أن تشغلنى عن الله عز وجل»[3]، ويقول: «وإنما كنت أفعل ذلك لأتعود الكرم، وهوانًا بالدنيا فى عيون المحبين لها، ومجاهدة للنفس»[4].

ولما صارت له زاوية جمع فيها مريديه وتلاميذه كان يقول: إن رزق زاويته «كل سنة من عسل النحل نحو عشرة قناطير، ومن عسل القصب نحو عشرين قنطارًا، ومن القمح ثلاثمائة أردب، وبلغ استجرار القول الحار أيام الشتاء كل سنة أربعين أردبًا، ومن الكشك سبعة أرادب، وبلغ عجين الكعك كل عيد خمسة أرادب، ويأتينا من كعك الريف نحو ثلاثة أرادب فى العيد، ونشترى مع ذلك من التمر والخرنوب والتين نحو خمسة قناطير، وهذه الأمور ليست اليوم فى زاوية من زوايا مصر»[5].

إن الشعرانى يريد أن يلفت أنظار المريدين والمشايخ إلى أن الدنيا ليست كبير شأن ليهتم بها المتصوف وتشغله عن هدفه وطريقه، فليس الخطر فى أن لا تأتى الدنيا، لكن الخطر أن يقصر العمر عن الوصول فى الطريق إلى الله تعالى، وإن هؤلاء المتصوفة الذين يتخذون التصوف حرفة، والطريق رزقًا، والأوراد وسيلة دنيا، هم أعظم الخطر على

---

(1) **المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص57، سبق.**
(2) **المصدر نفسه، ص83.**
(3) **الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، عبد الوهاب الشعرانى، ص60، سبق.**
(4) **المصدر نفسه، ص220.**
(5) **المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص625، سبق.**

التصوف وأهله، وإن الشعرانى يقول: «وقد رأيت شيخًا من مشايخ العصر يتنازع هو والناظر على عدم تمييزه عن إخوانه، ... فقلت له: هذا يجرح مقامك، فلم يلتفت إلى»[1].

والنتيجة من هذا كله مثل هذا الذى ذكره الشعرانى حين قال: «وقال لى الأمير محمد دفتردار [2] مصر مرة: أنا لا أعتقد فى مشايخ مصر الآن ولو مشى أحدهم فى الهواء، فقلت له: لماذا؟، فقال: لأنى رأيتهم يجتهدون فى طلب الدنيا أكثر مما نجتهد نحن فيه»[3].

سابعًا: عدم استعجال الوصول:

إن غرض الصوفى من تصوفه ليس أن يكون شيخًا، وصاحب مدرسة وطريقة، بل أن يصل إلى الله تعالى، وأن يرشد غيره إلى الطريق للوصول إليه.

وإن تعجل الصوفى المشيخة وجمع المريدين فى زاوية تحت إمرته قبل أن يتأهل ليكون قدوة لهم، وبابًا لترقيهم، يضره ويضر أهل زاويته، ويقلل من تأثير إخوانه فى صلاح المجتمع واستقامته.

إن مثل هؤلاء بدل أن يكونوا مصابيح قدوة، وشموس هداية، يكونون حجر عثرة وأذى لإخوانهم، ولقد أراد الشعرانى أن يبين هذه المعانى، ويذكر بعض هذه الأمور، فألف كتبًا ورسائل تبين وظائف الشيخ، وعلاقته بمريديه، وعلومه التى ينبغى أن يحيط بها، فنراه مثلاً يقول فى رسالته المسماة (ردع الفقرا عن دعوى الولاية الكبرى): «وأرجو من الله الكريم أن كل من نظر فيها بالأدب من مشايخ هذا الزمان علم يقينا أنه لم يشم رائحة الولاية، فضلاً عن حصولها، فيستريح من الدعاوى الكاذبة»[4]، ويقول: «وأرجو من الله تعالى أن كل من طالع فيه من فقراء هذا الزمان يعلم يقينًا أنه لم يشم طريق الولاية فضلاً عن حصولها، لأنه يجد نفسه عارية عن معرفة أسماء علوم الأولياء فضلاً عن أن يحيط بحقيقتها»[5] ويقول: «وقد ذكرنا قواعد أهل الطريق فى رسالة خاصة، فمن طالعها وجد بعض المشايخ اليوم لم يبلغ مقام مريد»[6].

---

(1) المصدر نفسه، ص247.

(2) (الدفتردار): اسم كان يطلق على الموظف المالى المكلف تنظيم الوارد والمنصرف من أموال الحكومة، المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ص230، طبعة وزارة التربية والتعليم، 1418هـ/1999م.

(3) تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر، عبد الوهاب الشعرانى، ص17، سبق.

(4) المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص203-204، سبق.

(5) الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية، عبد الوهاب الشعرانى، ج1، ص134، سبق.

(6) المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص353، سبق.

إن دعوى المشيخة والولاية والقطبية وغيرها من المراتب المعروفة عند الصوفية قبل تحقق الوصول إليها – فضلاً عن كونها كذبًا وزورًا – فهى أكبر العوائق عن الوصول إلى هذه الدرجات، لأن صاحب هذه الدعوى تكبر نفسه، ويظن أنه مقرب لا يحتاج إلى أن يسلك على يد غيره، ولا أن يجاهد بمشورة شيخه، فيخسر مع الخاسرين، ويبتعد من حيث يظنه يقرب، ويهبط من حيث يظن كونه يترقى.

وما أشد خسارة الإنسان حين يكتشف أنه سلك بغير ذى مسلك، وتمسك بغير ذى قوة، وترقى من حيث لا يصح الترقى.

وإذا أراد الصوفى أن يكون عنصر إصلاح، وباب خير وفلاح، فلا بد أن يتريث ليتأكد من الوصول، وليتثبت من صحة الطريق، قبل أن يضل ويهوى.

ثامنًا: التيقظ والانتباه فى جميع الأحوال:

إن شأن الصوفى أن يكون ذا فهم وتيقظ، صاحب انتباه دائم لكل ما يجرى حوله، ليزن ذلك بميزان العقل والشرع، وليأخذ من ذلك العبر والدروس، فإن تراكم الخبرات، وتذكر المواقف، هو أساس الفهم والترقى.

هذا التيقظ والانتباه له عند الشعرانى جانبان:

الأول: التيقظ والانتباه لما يمليه عليه شيخه، ويعلمه له، فإن بلادة الذهن، ونسيان الدرس، يقعدان الإنسان عن مواصلة الترقى، وسرعة الوصول.

وهنا مواقف يذكرها الشعرانى فى أثناء رحلته مع التصوف، واستمراره فيه، منها مثلاً ما ينسب للشيخ خضر الذى كفل الشعرانى يتيمًا، ومن ذلك قوله: إن الشيخ خضر أخذ بيده «وجاء بى إلى سيدى محمد بن عنان – وكان عنده الشيخ محمد العدل، والشيخ محمد بن داود، والشيخ أبو بكر الحديدى – وقال: كل منكم يدعو لهذا الولد دعوة، فدعا كل واحد منهم لى بدعوة، فوجدت بركة دعائهم إلى وقتى هذا»[1].

ومن المواقف كذلك قوله: «ومن وصية سيدى خضر – الذى كلفنى يتيمًا رحمه الله تعالى –: يا ولدى إذا كان لك عند السلطان حاجة فإياك أن تقف بين يديه تخاطبه بحاجتك كما يفعل الجاهلون، لأن مثلك جاهل بآداب الملوك التى أنت مطالب بها عند الله تعالى ولو لم يطالبوك هم بها، وتأمل الأمير الكبير ... إذا وقف بين يدى السلطان يقبل له الأرض، فما الذى تفعله أنت يا جعيدى، ... فاسأل حاجتك يا ولدى بالوسائط حتى يصل الأمر إلى السلطان

---

(1) **الطبقات الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ج2، ص126، سبق.**

بالوسائط التى تعرف الأدب معه»[1]، ومع تحفظى على هذا الدرس، وعدم موافقتى عليه، إلا أن موضع الاستشهاد هنا هو حفظ الوصية التى تم تلقينه إياها فى صغره.

وكذا قوله: «وأصل نظرى للعبر كان على يد والدى الذى كفلنى يتيمًا، كان يقول لى: ما ثم شىء أبرزه الله تعالى إلى هذا الوجود إلا وفيه حكمة بالغة، وأمرنى يومًا بالوقوف على من يقوّم الرماح على النار، فوقفت، فقال لى: ما رأيت؟، فقلت: ما رأيت شيئًا، فقال: يا ولدى أما تنظر أنه لا يعرض على النار إلا المعوج، وأما المستقيم فلا يعرض على النار، فأخذت من ذلك العبرة»[2].

الثانى: التيقظ والانتباه لما يلقى له من الكشوف، والأوراد، وغيرها من أحوال الطريق، فليس كل ما تلهمه يكون طريق خير لك، وليس كل ما يكشف لك – ولو كان صحيحًا – يكون رفعة لك، فإن الشيطان يتربص بكل عابد، ويتحين الفرص لكل ناسك، وينصب الفخاخ لكل متقرب، ولو لم يكن عند الإنسان شدة فى إيمانه، وقوة فى تأمله، وبصرية فى نظره، فسرعان ما يستدرجه الشيطان إلى حيث لا يرى خيرًا، ولا صلاحًا، ولا إصلاحًا.

إن الشعرانى مع تأكيده على أن الكشف طريق علم لدنى، وأن الفتح منة ربانية، وأن الرؤى وحى إلهى، لكنه يحذر الصوفى كثيرًا من أن يأخذه من غير تدقيق وتمحيص.

فإنه إذا كان الكشف لون معرفة وتعليم، لكن لا بد من أن يعلم الصوفى حدوده، وحقائقه، حتى لا يضل.

فالكشف لا عصمة فيه، ولو عارض «الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة، ولم يضمنها فى جانب الكشف، ولا الإلهام، ولا المشاهدة»[3].

ثم إن الكشف لا يأتى بأمر ولا نهى شرعى، فالأحكام الشرعية «لا تثبت بالكشف لعزتها، ولأنه لو فتح هذا الباب تخالفت الأحكام، وفسد نظام الشريعة، لكثرة المدعين»[4].

ثم إن الأمر قد يتغير بعد الكشف عنه لأن لله تعالى حضرة إطلاق يفعل بها ما يشاء، وقد أجمع القوم على أن «كل فقير أطلع على شىء من عيوب الناس ولو من طريق كشفه فهو فى حضرة الشيطان، لا فى حضرة الله تعالى، ولا

---

(1) **البحر المورود فى المواثيق والعهود، عبد الوهاب الشعرانى، ص149، سبق.**
(2) **المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص73، سبق.**
(3) **الطبقات الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ج2، ص97، سبق.**
(4) **الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية، عبد الوهاب الشعرانى، ج1، ص78، سبق.**

حضرة ملائكته، وقالوا: كل كشف اطلع صاحبه على شيء من عيوب الناس فهو كشف شيطانى يجب عليه التوبة منه»[1].

ثم لا بد من أن يعلم المكاشف أن إبليس له قدرة على التلبيس عليه، وقد يأتيه بالكشف الصحيح التام ويقنع منه أن يجهل من أتاه به، وليس كل ما يكشف لك تستطيع فهمه، فإن بعض أهل الكشف الناقص أنكروا حشر الأجساد، مع أن كشفهم كان صحيحًا، لكن فهمهم له كان غير صحيح [2].

ومثل ما سبق يقال فى الفتح – وهو كشف حجاب النفس لما جاء به الرسول من الكتاب والحديث[3] – فإن الفتح قد يدخله المكر والاستدراج، وإن كل «فتح أعطاك أدبًا وترقيًا وذل نفس فليس هو بمكر، بل عناية من الله بك، وكل فتح أعطاك أحوالاً، وكشفًا، وإقبالاً من الخلق، فاحذر منه، فإنه نتيجة عجلت فى غير موطنها»[4].

وكذلك يقال فى الرؤى، فليس دائمًا ما يكون مرادها واضحًا أو صحيحًا، وقد كان عبد الله بن المبارك يقول: «ربما يرى بعضهم الرؤيا السوء للرجل الصالح ليزداد بها نشاطًا، وربما يرى بعضهم الرؤيا الصالحة للرجل لسوء ليزداد بها استدراجًا»[5].

بل إنه حتى إذا وقعت على يديه خوارق العادات، فإن الشعرانى يجوز وقوعها للعصاة والفساق مكرًا واستدراجًا [6]، وهو رأى وإن كان غير راجح عندى، ولى عليه ملاحظات [7]، إلا أنه يبين مدى تنبيه الشعرانى للصوفى للصوفى ليكون دائمًا على حذر وفهم، فلا بد أن يكون متصوفًا فى صحو وأدب، ولا يركن إلى ما يتوالى عليه من الأحوال والواردات.

فليحذر الصوفى كل الحذر، وليعلم أن تباطؤ السير مع صحة الطريق، واليقين بذلك، خير من سرعته مع الخطأ أو الشك.

خـــاتـمـة

---

(1) الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، عبد الوهاب الشعرانى، ص226، سبق.
(2) المنن الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ص494، سبق.
(3) الطبقات الكبرى، عبد الوهاب الشعرانى، ج1، ص6، سبق.
(4) الجواهر والدرر، عبد الوهاب الشعرانى، ص107، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى، 1418هـ/1998م.
(5) تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر، عبد الوهاب الشعرانى، ص141، سبق.
(6) الجواهر والدرر، عبد الوهاب الشعرانى، ص50، سبق.
(7) الرؤية الصوفية لقضايا العقيدة ...، المؤلف، ص336–337، سبق.

أردت فى هذا البحث الموجز أن أقدم لبعض هذه الملامح والنقاط من فكر الإمام الشعرانى، ولا زال فى كتبه الكثير، وحسبى أنى أشرت إليها، ونبهت عليها.

وليس الغرض من هذه الورقات إلا أن أساعد فى الوصول إلى الإصلاح المنشود، فإن صحة العرض، وصدق النصيحة، وإخلاص النية، هو أول طريق الصواب والحقيقة.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران: 8].

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين